ISSN: 1111-7699
DOI:…16/IJO/01.2018
مجلة الدراسات الأثرية
مجلد:16 عدد:01 /2018

تطور طقوس الدفن في مدينة تيبازة
من القرن الأول قبل الميلاد حتى القرن الثالث الميلادي.

د. حكيم إيديران

CNRA, 23 rue Hocine Beladjel 16000 Alger-centre (hakim.idirene@gmail.com)

الملخص:

يتناول هذا المقال موضوع طقوس الدفن المتمثّلة في الدفن العادي و الترميد، التي سادت في مقابر مدينة تيبازة خلال الفترة الممتدة من القرن الأول ق.م حتى القرن الثالث الميلادي. انّ توفر المعطيات الأثرية الناتجة من حفريات مقابر تيبازة، تجعل منها موقعا متميزا لمحاولة تتبع مختلف مراحل إنتشار هذه الطقوس و معالجة مسألة الإنتقال من عادة إلى أخرى عبر مختلف الأزمنة.

و يمكن عموما تمييز ثلاثة أطوار أساسية لهذه الطقوس يتمثّل أوّلها في الأزمنة المبكرة الموافقة للعهد الفينيقي–البوني حيث عمّت عادة الدفن العادي، ثم كان تبنّي عادة الترميد في الطور الثاني بين القرن الأول ق.م و القرن الثالث الميلادي، لتطغى بعد ذلك عادة الدفن العادي نهائيا خلال الطور الثالث بدءا من القرن الرابع الميلادي. ولتفسير ظاهرة الإنتقال من عادة لأخرى، لابد من الرّجوع إلى التركيبة العرقية لمجتمع تيبازة، على خلفيّة ورود عناصر دخيلة إثر الإحتلال الروماني، بالإضافة إلى دور الموروث الحضاري للسكان الأصليين الذين ظلوا متمسّكين بممارساتهم موازاة بممارسات الوافدين الجدد.

الكلمات المفتاحية: تيبازة، طقوس الدفن، قبر،الدفن العادي، الترميد.

Résumé :

Cet article se rapporte aux modes d'inhumation représentés par l'inhumation simple et l'incinération qui ont prévalu dans les nécropoles de la cité antique de Tipasa entre le 1er siècle av. J.-C. et le 3ème ap. J.-C., sachant que ce site offre une grande opportunité pour l'étude de l'évolution des modes d'inhumation et l'approche de la question du passage d'un mode à un autre.

Les données archéologiques font ressortir trois grandes phases qui se distinguent par la prédominance de l'un des modes d'inhumation: la Haute antiquité correspondant à l'époque phénico-punique est marquée par une nette prévalence de l'inhumation simple, puis vient une période caractérisée par la domination du mode de l'incinération entre le 1er siècle av. J.-C. et le 3ème ap. J.-C., puis une dernière phase marquée par un retour à l'inhumation simple à partir du 4ème siècle. Le passage d'un mode à un autre peut être interprété, d'une part, par la composante ethnique de la population issue en particulier de la colonisation romaine et, d'autre part, par la survivance de rites anciens.

Mots clés : Tipasa, mode d'inhumation, tombe, inhumation, incinération.

مقدمة:

تشكل طقوس الدفن التي ترجع الى الفترة القديمة إحدى المحاور الأساسية في ميدان الدراسات الجنائزية حتى نفهم كيفية تعامل الأحياء تجاه موتاهم وإبراز تطور تلك المعاملات عبر الزمن. لقد دلت المعطيات المتوفرة حول هذا الموضوع في المغرب القديم على إنتشار عادتي الدفن العادي والترميد، ومع ذلك ينبغي التدقيق في تلك المعطيات لمحاولة تتبع مختلف مراحل ممارسة هاتين العادتين. و تشير الابحاث الخاصة بالعالم الجنائزي في المغرب القديم الى أن ممارسة عادة الدفن العادي كانت حاضرة بقوة في أوساط المجتمعات السكانية منذ عصور ما قبل التاريخ وفجر التاريخ، وأن ممارسة الترميد كانت نوعا ما نادرة، علما أنه يحتمل أن تعود أقدم ممارسة للترميد إلى مغارة تيفريت بالقرب من ولاية سعيدة، في المستوى الذي يعود إلى العصر النيوليتي[1]. وحول أصول عادة الترميد، يشير الباحث كامبس (Camps G.) إلى أن هناك تباين زمني في ظهور هذه الممارسة بين الشرق والغرب الجزائريين، حيث يعتقد أن ظهورها في الشرق جاء نوعا ما متأخرا مقارنة بالغرب[2]، مضيفا في ذلك أن طقس الترميد بصفة عامة قد يندرج ضمن التأثيرات الأجنبية، خاصة في العصور التاريخية[3].

وإذا حاولنا رصد لمحة ولو وجيزة حول طقوس الدفن التي كانت سائدة في االفترة البونية، يتجلى لنا من خلال معطيات بعض المقابر أن سكان المغرب القديم مارسوا عادتي الدفن والترميد، مع إنتشار أوسع لعادة الدفن العادي، فعلى سبيل المثال، كانت عادة الدفن العادي منتشرة في مدينة قرطاجة في الفترة البونية التي امتدت بها من القرن 8 إلى غاية القرن 2 ق.م، بينما لم تظهر ممارسة الترميد خلال هذه الفترة إلا في نهاية القرن 4 ق.م، و استمرت فيما بعد كلتا العادتين الى جانب عادة الدفن

[1] Gsell (S.), chronique archéologique africaine, mélanges d'archéologie et d'histoire, vol. 20, n° 1, 1900, p. 82 ; Camps (G.), « Incinération », Encyclopédie berbère, vol. 24, 2001, Aix-en-Provence, Edisud p. 3 (http://encyclopedie berbere.revues.org/1567).
[2] Camps (G.), Monuments et rites funéraires protohistoriques : aux origines de la Berbèrie, Paris, 1961, p. 503
[3] Id. « Incinération », Encyclopédie berbère, 24, p. 2-3.

العادي[4]. وحول تبني عادة الترميد خلال هذه الفترة، فقد ارجع بعض الباحثين ذلك الى تأثر العالم البوني بصقيلية الإغريقية[5]. مثلا في المقبرة البونية لمدينة إيجيلجيلي، وجدت إضافة إلى ممارسة عادة الدفن العادي التي سجلتها آلكيي (Alquier) في بعض القبور المؤرخة مابين القرنين 3 و 2 ق.م[6]، عادة الترميد التي لاحظتها آستروك (Astruc) في نفس المقبرة في عدد من القبور الأخرى المؤرخة كذلك ما بين القرنين 3 و 2 ق.م [7].كدلك انتشرت في مقبرة راشقون بالقرب من مدينة سيقا القديمة عادة الترميد خلال القرنين 6 و5 ق.م[8]، حيث سجل فيلمو (Vuillemot) أن قبور الدفن العادي التي خصت بدون إستثناء فئة الأطفال كانت ضئيلة مقارنة مع قبور الترميد، مع العلم أنه لم يستطع تأريخ قبور الدفن لإنعدام المرفقات الجنائزية فيها[9].

وإذا كانت هذه هي بعض المعطيات حول طقوس الدفن في الفترة البونية، الا أن ممارسة عادة الدفن العادي التي تستمد أصولها من العادات الجنائزية المحلية وتأثيرات قرطاجة البونية ظلت سائدة لفترة طويلة من الزمن، على الرغم من التباين الذي قد يميز منطقة عن الأخرى مثلما هو بالنسبة للغرب الجزائري الذي سادت فيه اكثر ممارسة عادة الترميد[10].

فيما يخص الفترة البونية المتأخرة التي تزامنت مع بداية الإستيطان الروماني فرغم تباين طقوس الدفن من موقع لأخر تبعا لأصول ومكونات المجتمعات البشرية، إلا أن المعطيات الأثرية تشير الى تراجع في ممارسة عادة الدفن العادي بدءا من منتصف القرن 2 ق.م لتصبح عادة الترميد أكثر إنتشارا بين أواخر القرنين 1 ق.م و 1 م، ثم مورست العادتين خلال القرن 2 م، لتزول تدريجيا عادة الترميد بداية من القرن 3 م حتى تشمل بعد ذلك ممارسة عادة الدفن العادي كل أرجاء المغرب القديم في بداية القرن 4 م. نشير أن هذه التحولات التي خصت طقوس الدفن في المغرب القديم طوال الفترة الممتدة بين منتصف

[4]Bénichou-Safar (H.), Les tombes puniques de Carthage. Topographie, structures, inscriptions et rites funéraires. Paris, CNRS édit., 1982, p. 237.
[5] Gsell (S.), Histoire ancienne de l'Afrique du nord., t. IV, p. 448 ; Camps (G.), Monuments…, p. 465.
[6] Alquier (J. et P.), « Tombes phéniciennes à Djidjeli », Rev. Archéol. 1930, p. 1-17.
[7] Astruc (M.), « Nouvelles fouilles à Djidjeli »,Rev. Afr., 80, 1937, p. 206, 218, 219.
[8] Camps, « Incinération », Encyclopédie berbère, p. 3.
[9] Vuillemot (G.), La nécropole punique du phare dans l'Ile Rachgoun (Oran), Libyca (Arch. – Epig.), III – 1, 1955, p. 10-12.
[10] Fevrier (P.-A.), « Incinération et inhumation dans le Maghreb antique », in Incinérations et inhumations dans l'occident romain aux trois premiers siècles de notre ère, édit. M. Vidal, Paris, 1991, p. 186.

القرن 2 ق.م حتى القرن 4 م، مرجعها ما توصل إليه الباحثين في عدد من المواقع، منهم غزال (Gsell S.) من خلال دراسته الشاملة للمعالم العتيقة للجزائر[11]، ولوفو (Leveau Ph.) بالنسبة لشرشال[12]، وبوشناقي (Bouchenaki M.) إثر حفرياته في تيبازة[13]، وكذا فيفري (Février P.-A.) الذي قدم حوصلة شاملة حول طقوس الدفن في المغرب القديم[14]، أو حتى الباحثين سطون و ستيرلينغ (Stone (D.- L.) - Stirling (L.- M.)) من خلال رصدهما في عام 2007 حوصلة شاملة حول المعالم والممارسات الجنائزية في المغرب القديم[15].

وحول مسألة الانتقال من عادة إلى أخرى، فيعتبر موقع تيبازة العتيقة من بين المواقع التي تجسدت فيها نوعا ما هذه الظاهرة ، حيث عرفت مقابرها العديدة عدة حفريات (شكل 1)، الشيئ الذي جعلها موقعا متميزا لدراسة تاريخ طقوس الدفن على المستوى المحلي إنطلاقا من الفترة البونية الى غاية الفترة المسيحية.

[11] Gsell (S.), Les monuments antiques de l'Algérie. Service des Monuments Historiques de l'Algérie, t. II, Paris, 1901, p. 39.
[12] Leveau (Ph.), Caesarea de Maurétanie : une ville romaine et ses campagnes. Collection de l'école française de Rome, 70, Rome, 1984, p. 206-207.
[13] Bouchenaki (M.), Fouilles de la nécropole occidentale de Tipasa (Matarès) (1968-1972) SNED, Alger, 1975, p. 172.
[14] Fevrier (P.-A.), Opcit, p. 184.
[15] Stone (D.- L.) - Stirling (L.- M.), «Funerary monuments and mortuary practices in the landscapes of North Africa», In mortuary landscapes of North Africa, Toronto, 2007, p. 3-31.

ISSN: 1111-7699
DOI:...16/IJO/01.2018

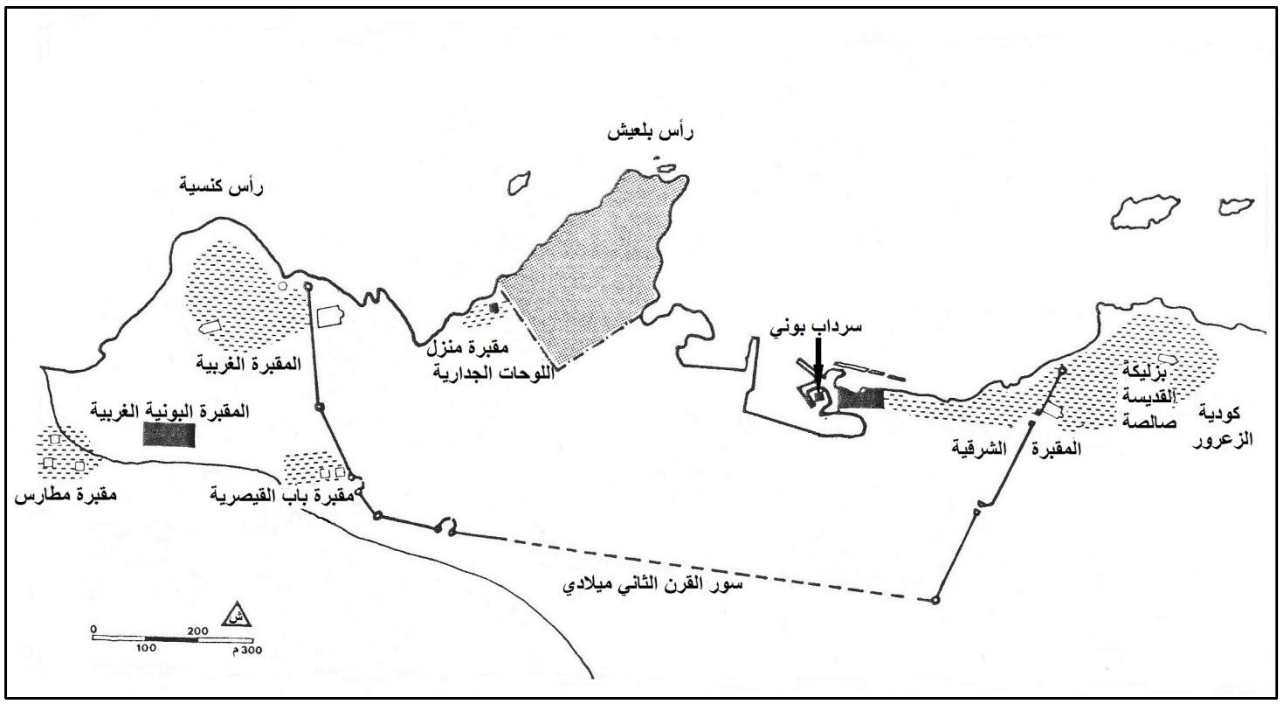

شكل 1: توزيع المقابر بمدينة تيبازة العتيقة
(Lancel S., 1982, fig. 10, p. 758)

1- طقوس الدفن في تيبازة من خلال المعطيات الأثرية:

إستنادا إلى معطيات القبور المؤرخة بين القرنين 1 ق.م و 3 م التي اخترنا منها 100 قبر لغرض التحليل والدراسة[16]، اتضح انتشار ممارسة عادة الترميد بين القرنين 1 ق.م و 1 م بشكل واسع مقارنة بعادة الدفن العادي، بحيث تقدر ممارسة عادة الترميد نسبة 75 % مقابل 25 % بالنسبة لعادة الدفن العادي (شكل 2)، مع العلم أن هذه المعطيات مستمدة خصيصا من المقبرة الشرقية ومقبرة منزل اللوحات الجدارية، وكذا بعض قبور المقبرة الغربية المؤرخة بهذه الفترة. أما بالنسبة للفترة الممتدة بين القرنين 2 و3 الميلاديين، فتبين من خلال المقبرة الغربية ومقبرة مطارس اللتين تحتويان على قبور من نفس الفترة، أنه رغم استمرار في ممارسة عادة الترميد بنسبة 57 %، الا ان ممارسة الدفن تضاعفت لتبلغ 43 % (شكل 2).

[16]تندرج المائة قبر التي قمنا بإحصائها ضمن مجمع القبور الذي أعددناه إثر تحضير أطروحة الدكتورة تحت عنوان: "مقابر مدينة تيبازة القديمة. عمارة وممارسات جنائزية. ق. 1 ق.م – ق. 3 م" – إيديران ح. جامعة الجزائر 2، معهد الآثار، 2017.

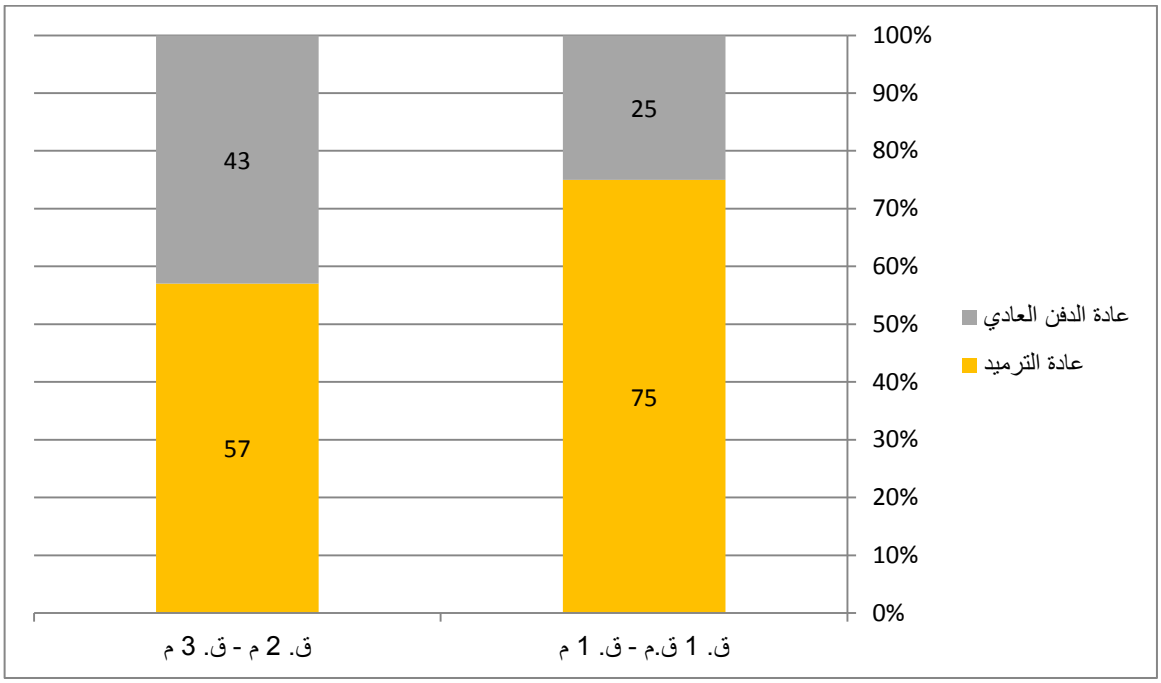

شكل 2: رسم بياني يوضح إنتشار عادتي الترميد والدفن العادي في مقابر تيبازة .

تُمكّننا هذه المقابر بدا من المقبرة البونية الغربية، التي تعد أقدم مقبرة في تيبازة من تتبع تتطور تلك الممارسات طوال الفترة الممتدة بين القرن 4 ق.م و القرن 3 م.

بالنسبة للمقبرة البونية الغربية (القرنين 4 و 1 ق.م)التي وجدت فيها القبور على شكل حفر مستطيلة مهيأة في الصخر، لاحظ لانسيل (Lancel S.) أن ممارسة عادة الترميد كانت تشكل حالات إستثنائية، حيث لم يسجل منها إلا 6 قبور، من بينها 3 في قبر واحد [17]. وعلى ضوء هذه المعطيات، يتبين أن عادة الدفن العادي كانت أكثر إنتشارا ، حيث كان الموتى يدفنون في الوضعية الممددة على الظهر تبعا للمحور الطويل للقبور، يكون الرأس في معظم الأحيان في الجهة الشمالية أو في الجهة الجنوبية في بعض الحالات الإستثنائية، ونادرا ما سجل فيها أثر استعمال الحاويات الخشبية[18]. و رغم عدم إسناد المرفقات الجنائزية الخاصة بكل قبر، سواء كان ذو عادة الترميد أو ذو عادة الدفن العادي، إلا أنه يبدو

[17] Lancel (S.), « Tipasitana III : la nécropole préromaine occidentale de Tipasa ». Rapport préliminaire (campagnes de 1966 et 1967). Bulletin d'Archéologie Algérienne, III, 1968, p. 105.
[18] Lancel (S.) 1968, p. 106.

من خلال تواجد كل من الفخار الكمباني A و B ضمن المرفقات الجنائزية، أن عادة الدفن العادي ظلت سائدة حتى القرنين 2 و 1 ق.م. و هذا ما حاول تاكيده بوشناقي إثر تنقيبه هذه المقبرة عام 1968، أين عثر على قبر آخر ذو عادة الدفن العادي الذي أرخه ما بين نهاية القرن 2 ق.م وبداية القرن 1 م، مشيرا في ذلك إلى استمرارية العادات الجنائزية البونية خلال هذه الفترة[19].

فيما يخص المقابر الأخرى في الفترات اللاحقة، فقد اعتمدنا على جملة من المعطيات استخلصناها من المقبرة الشرقية، ومقبرة منزل اللوحات الجدارية، والمقبرة الغربية، ومقبرة باب القيصرية، وأخيرا مقبرة مطارس، و ذلك من خلال الحفريات منها التي أجراها الباحث بارادز (Baradez J.)، في المقبرة الشرقية (القرن 2 ق.م و نهاية القرن 1 م)، حيث تبين انه من بين 70 قبر اللذين تم التنقيب فيها، سجلت 46 منها بعادة الترميد و 12 بعادة الدفن العادي[20]. وإن كانت أغلبية قبور الترميد مؤرخة بالقرن 1 م، إلا أننا وجدنا ما لا يقل عن 9 قبور مؤرخة بالقرن 1 ق.م من خلال وجود أطباق من النوع الكمباني B ضمن المرفقات الجنائزية[21]. وفي المقابل، إذا تم التأكد من ممارسة عادة الدفن العادي خلال القرن 1 ق.م (B6bis، B11، B37، B53)[22]، فهي ظلت مستمرة حتى بداية القرن 1 م (B12، B30bis، B40)[23].

فبالإضافة إلى تزامن ممارسة عادتي الترميد والدفن العادي جنبا إلى جنب خلال القرنين 1 ق.م و1 م، ومقارنة بالمقبرة البونية الغربية المؤرخة بين القرن 4 ق.م و القرن 1 ق.م التي كانت فيها ممارسة عادة الترميد فيها نادرة، فان معطيات المقبرة الشرقية تبين على العكس أن ممارسة عادة الترميد كانت أكثر إنتشارا خلال القرن 1 ق.م مقارنة بعادة الدفن العادي.

بالنسبة لمقبرة منزل اللوحات الجدارية التي تقع داخل سور المدينة، فقد قام بارادز بالتنقيب على 39 قبرا مؤرخة في معظمها بالثلث الأخير من القرن 1 م، علما أنه لم تتوفر فيها قبور مؤرخة قبل

[19] Bouchenaki (M.), Note sur un type de tombe punique dans la nécropole de Tipasa, Orieus Anticuus., 9, fasc. 2, Roma, 1970, p. 147.
[20] Baradez (J.), « Nouvelles fouilles à Tipasa dans une nécropole païenne ». *Libyca*, V, 1957, p. 213-214.
[21] Baradez (J.) Opcit., T. B2, p. 164 ; T. B6, p. 166-167 ; T. B9, p. 167-168 ; T. B10, p. 168 ; T. B21, p. 175 ; T. B22, p. 175-176 ; T. B45, p. 191 ; T. B50, p. 193-194 ; T. B52, p. 194-195.
[22] Ibid., T. B6bis, p. 166-167; T. B11, p. 168-169 ; T. B37, p. 185 ; T. B53, p. 195-196.
[23] Ibid., T. B12, p. 169-170 ; T. B30bis, p. 182; T. B40, p. 186-187.

النصف الثاني من القرن 1 م. ومن مجموع هذه القبور التي عرف اغلبها عادة الترميد، سجل منها 5 قبور خاصة بعادة الدفن العادي تضمنها العنصر النسوي[24]. و تدل قبور الدفن العادي على استمرارها الى أواخر القرن الأول ميلادي رغم تغلب إنتشار عادة الترميد في هذه المقبرة، ولو انها خصت فئة معينة من المجتمع، وبالتالي فهل تعبر هنا عادة الدفن عن ظاهرة استمرارية مثل ما سجل ذلك في المقبرة الشرقية في بداية القرن 1 م ؟

خلال الحفريات التي أجراها الباحث لانسيل في مقابر تيبازة، عثر في المقبرة الغربية الواقعة خارج حدود سور المدينة على مجموعتين من القبور، تفصل بينهما أرضية من الإسمنت[25]، مسجلا في المستوى السفلي I الذي تمتد فترة إستعماله ما بين القرن 4 ق.م و منتصف القرن 1 م حيث لوحظ وجود تكافؤ بين عادتي الترميد والدفن العادي[26]. فإذا أدلت قبور هذا المستوى عن ممارسة عادة الترميد في بداية القرن 1 م مثلما جاء ذلك في المقبرة الشرقية ومقبرة منزل اللوحات الجدارية[27]، فهي تدل كذلك على ممارسة عادة الدفن العادي بين القرنين 4 و 2 ق.م مثلما تم تسجيل ذلك في المقبرة البونية الغربية، واستمرت حتى النصف الأول للقرن 1 م لتتزامن مع قبور الترميد. وما ينبغي الإشارة إليه أنه من بين 6 قبور الدفن العادي التي توفرت في هذا المستوى، خصت 5 منها فئة الأطفال، بينما جاء القبر السادس المتمثل في السرداب الدفن الجماعي Y المؤرخ في بداية القرن 1 م خاص بالأشخاص البالغين[28].

أما بالنسبة للمستوى العلوي II، فقد جاءت قبوره متوزعة بين الفترة الممتدة بين نهاية القرن 1 م و نهاية القرن 2 م، حيث لاحظنا ان اقدم القبور فيها ذو عادة الترميد Z 7 و Z17 اللذين يرجح تأريخهما بالنصف الثاني من القرن 1 م، مع إحتمال إستعمال هذا المستوى حتى خلال القرن 3 م على أساس ظهور عدد من قبور الدفن العادي لم يتسنى للباحث تأريخها بسبب إنعدام المرفقات الجنائزية فيها[29]. فإذا

[24] Id., 1961 : T. VIII, p. 24 ; T. XXV, p. 41 ; T. XXVI, p. 41 ; T. XXXIII, p. 42 ; T. XXXIV, p. 42-44.

[25] Lancel (S.), « Tipasitana I : fouilles dans la nécropole occidentale de Tipasa » (rapport sur des travaux réalisés au cours d'un stage archéologique en juillet 1964). Bulletin d'Archéologie Algérienne, I, 1962-1965, p. 41-74.

[26] Ibid., p. 60.

[27] قبور الترميد المستوى I المؤرخة ببداية القرن 1م: Z ص. 50-51 ، Z4 ص. 51-53، Z14 ص. 53-54، Z15 ص. 54-55.

[28] قبور الدفن العادي الخاصة بفئة الأطفال المؤرخة بين القرن 4 ق.م والنصف الأول للقرن 1 م: Z20 ص. 55-57، Z21 ص. 57، Z22 ص. 57، Z23 ص. 57-58، Z24 ص. 58.

[29] Lancel (S.) 1962-1965, p. 68.

أسفرت معطيات هذا المستوى عن ممارسة عادة الترميد بين النصف الثاني من القرن 1 م والقرن 2 م، فإن من بين قبور الدفن العادي التي تم تسجيلها في هذا المستوى، لم تتوفر المؤشرات التأريخية إلا في قبر واحد (Z6) الذي أُرخ بفضل قطعة نقدية للإمبراطور هادريانوس (Hadrianus) بالنصف الأول من القرن 2 م[30]. ويتبين لنا من خلال هذه المعطيات، أنه رغم إنتشار ممارسة عادة الترميد، فقد ظلت عادة الدفن العادي متزامنة مع عادة الترميد خلال النصف الأول من القرن 2 م، علما أنه لم يتم توثيق ممارسة الدفن العادي في هذه المقبرة خلال النصف الثاني للقرن 1 م.

أما بخصوص مقبرة باب القيصرية أين قام لانسيل بالتنقيب على أكثر من 100 قبر، فإن هذا الباحث لم يقدم نتائج تنقيباته بصفة مفصلة، ولذلك سوف نحاول استخلاص ما أورده من معطيات حول طقوس الدفن في هذه المقبرة، مع العلم أنه سبق التنقيب في هذه المقبرة على حوالي 300 قبر من طرف بارادز الذي لم ينشر نتائج حفرياته. فهذه المقبرة التي تنحصر فترة استعمالها القديمة بين نهاية القرن 1 م ونهاية القرن 2 م، عمت عادة الترميد كل القبور المؤرخة بهذه الفترة، فيما عدا قبر واحد خاص بعادة الدفن العادي، وهو مؤرخ كذلك بنهاية القرن 1 م[31]. ولقد دلت كذلك بعض قبور الترميد الثانوية التي جاءت على شكل مراميد في تجاويف صخرية أن ممارسة الترميد كانت سائدة منذ عهد الفلافيين (69م – 96م)، على أساس العثور في إثنين منهما على نقدين إحداهما للإمبراطور غالبا (Galba) (68م – 69م)، والأخر للإمبراطور كلوديوس (Claudius) (41م – 54م)، وضم لانسيل هذا النوع من القبور ضمن اقدم أشكال القبور الترميدية في مقبرة باب القيصرية[32]. وإلى جانب قبور الترميد، توفر في مقبرة باب القيصرية عدد من قبور الدفن العادي في التربة يرجح أن تكون جد متأخرة بحجة غياب المرفقات الجنائزية فيها وتموقعها في مستوى أعلى مقارنة مع مستوى القبور المقببة التي سادت فيها عادة الترميد، علما أنه حينما تم تشييد قبور الدفن العادي في فترة متأخرة، تم التخلي عن صيانة قبور القرن 2 م[33]. وفي غياب المؤشرات التأريخية حول هذه القبور، فهي ربما تأتي لتجسيد ذلك الإنقطاع في ممارسة الترميد في أواخر القرن 3 م وبداية القرن 4 م.

[30] Lancel (S.), 1962-1965, T. Z6, p. 64-66.
[31] Lancel (S.), « Tipasitana IV : La nécropole romaine occidentale de la porte de Césarée ». Rapport préliminaire. Bulletin d'Archéologie Algérienne, IV, 1970, p.164.
[32] Ibid., p. 155.
[33] Ibid., p. 157.

وإلى جانب كل هذه المقابر التي تطرقنا إليها، تم تسجيل بعض المعطيات من خلال التنقيبات التي أجراها الباحث بوشناقي في المقبرة الغربية لمطارس المتميزة بفضاءاتها الجنائزية والتي استمر استعمالها طوال الفترة الممتدة ما بين القرن 2 م حتى القرن 5 م، علما أنه لم تتوفر فيها قبور سابقة للقرن 2 م[34]. أهم ما يميز طقوس الدفن في هذه المقبرة، هو تزامن عادتي الدفن العادي والترميد طوال القرنين 2 و 3 الميلاديين، كما يتجلى ذلك من خلال الفضاء الجنائزي 2 للمجموعة II، الذي يعتبر من أقدم فضاءات هذه المقبرة[35]. ولقد توفر في هذا الفضاء الجنائزي أكبر عدد من القبور الأكثر أقدمية، والتي شاعت في معظمها عادة الترميد، بحيث تم فيه تسجيل ما لا يقل عن 10 قبور الترميد مؤرخة بين القرن 2 م و بداية القرن 3 م و 4 قبور خاصة بعادة الدفن العادي مؤرخة بين نهاية القرن 2 م والقرن 3 م. ففي الوقت الذي لم يتم توثيق ممارسة عادة الدفن العادي بصفة مؤكدة في هذا الفضاء قبل نهاية القرن 2 م، نجد أنه تم التحقق في استمرار ممارسة الترميد حتى بعد الربع الثاني من القرن 3 م من خلال قبر الترميد رقم8 الذي عثر به على نقدين إحداهما للإمبراطور سيفيروس الأسكندر (Severus Alexander) (222م – 235م) مؤرخة بعام 226 م والآخر غير مقروء[36].

ومن ضمن قبور المجموعة I التي أحصي فيها على 6 فضاءات جنائزية، يعتبر القبر المقبب رقم 6 ذو عادة الترميد، الوحيد الذي توفرت فيه المؤشرات التأريخية، حيث تم تأريخه بالنصف الأول من القرن 2 م[37]. لذا، فهو يعد من أقدم قبور هذه المجموعة، بينما ترجع قبور الدفن العادي في الفضاءات الأخرى إلى العهود المتأخرة (ق. 4 م – ق. 5 م)[38]. وقد تدل قبور هذه المجموعة كذلك على أنه تم التخلي تدريجيا عن طقس الترميد، الذي كان سائدا خلال القرنين 1 و 2 م، ليستبدل تدريجيا بعادة الدفن العادي خلال القرنين 4 و 5 الميلاديين. ولقد تم تسجيل نفس المعطيات في قبور المجموعة III، حيث يعتبر القبر الترميدي 3 المؤرخ بالقرن 2 م، من أقدم قبور هذه المجموعة، في الوقت الذي ترجع فيه القبور الأخرى إلى القرنين 4 و 5 الميلاديين[39].

[34] Bouchenaki (M.), 1975, p. 194.
[35] Ibid., p. 172.
[36] Bouchenaki (M.) 1975, T. 8, (Ensemble II, Area 2), p. 86-87.
[37] Ibid., T. 6 (Ensemble I Area 6), p. 60-61.
[38] Ibid., p. 62.
[39] Ibid., p. 144-145.

كما تم كذلك في هذه المقبرة تسجيل عدد من القبور المقببة ذات عادة الدفن العادي، وهي غير مؤرخة لإنعدام المرفقات الجنائزية فيها، نذكر منها قبور 5، و6، و 28 (مجموعة II، فضاء 3)[40]، قبر 1 (مجموعة I، فضاء 3)[41]، و قبر 5 (مجموعة ا، فضاء 5)[42]، و كل من القبور 10، و 11، و 12، و 13، و 14 (مجموعة III)[43]. وفي ظل غياب تأريخ هذه القبور، يعتقد الباحث فيفري أنه ربما لا ينبغي تأخير هذا النوع من القبور بكثير عن القبور المقببة الترميدية التي لا تختلف عنها من حيث البنية الخارجية، وبالتالي قد يدل هذا على تزامن عادتي الترميد والدفن العادي في هذا النوع من القبور[44]. وبالمقابل، يعتقد الباحث بوشناقي أن قبور الدفن العادي من النوع المقببة، قد تكون حديثة بالمقارنة مع تلك التي تخص عادة الترميد بحكم عدم مرافقتها بالأثاث الجنائزي وإنتشار هذا النوع من القبور حول بازيليكة القديسة صالصا بالمقبرة الشرقية بتيبازة[45].

2- استنتاج عام حول طقوس الدفن في تيبازة:

يتجلى من خلال المعطيات المتوفرة حول تطور ممارسة طقوس الدفن بمقابر تيبازة أن ممارسة الدفن العادي ظلت أكثر إنتشارا بين القرنين 4 و 1 ق.م مثلما دلت على ذلك المقبرة البونية الغربية، التي لم تنتشر فيها عادة الترميد إلا نادرا، والتي قد ترجع فيها أصول طقوس الدفن إلى التقاليد الفينيقية–البونية التي تطغى فيها عادة الدفن العادي. لكن في العهود المتأخرة لهذه المقبرة، بدأت تظهر في المقبرة الشرقية ومقبرة منزل اللوحات الجدارية بين القرنين 1 ق.م و 1 م ممارسات مخالفة تماما لتلك التي كانت سائدة في المقبرة الغربية. ومن خلال ما أوفت به معطيات المقبرة الشرقية ومقبرة اللوحات الجدارية، يتضح أن ممارسة عادة الترميد لدى أفراد هذه المقابر كانت أكثر شيوعا مقارنة بعادة الدفن العادي. وبخصوص التحول من ممارسة عادة الدفن العادي إلى عادة الترميد دون التخلي كليا عن عادة الدفن العادي، قد يفسر ذلك استقرار بعض الوافدين الجدد في مدينة تيبازة الذين احتفظوا بتقاليدهم الجنائزية، إضافة إلى أثر الإستيطان الروماني خاصة في المراكز الحضارية الكبرى. ولقد ظلت ممارسة عادة الترميد سائدة طوال القرنين 1 و 2 الميلاديين كما إتضح ذلك من خلال مقبرة باب القيصرية، دون زوال عادة الدفن العادي

[40] Bouchenaki (M.) 1975, p. 103-104 et 105
[41] Ibid., p. 53.
[42] Ibid., p. 59.
[43] Ibid., p. 152-153.
[44] Février (P.-A.) 1991, « Incinération et inhumation… », p. 185.
[45] Bouchenaki (M.), 1975, p. 53, 59, 153.

التي قد تدل خلال هذه الفترة على مدى استمرار الموروث البوني–المحلي في ظل الإستيطان الروماني الذي استمر في كل الجوانب وليس فقط في طقوس الدفن، أما خلال الفترة الممتدة بين نهاية القرن 2 والقرن 3 الميلاديين، فلاحظنا انه رغم استمرار ممارسة عادة الترميد، إلا أنه تضاعفت في نفس الوقت ممارسة عادة الدفن العادي، كما يتجلى ذلك في مقبرة مطارس، حتى أصبحت تشكل العادة المفضلة لدى أفراد مدينة تيبازة في أواخر القرن 3 و 4 الميلاديين.

وبالرغم من شيوع عادة الترميد في مقابر تيبازة بين الفترة الممتدة من نهاية القرن 1 ق.م و القرن 2 م، إلا أنه لم يتم التخلي تماما عن ممارسة عادة الدفن العادي طوال كل هذه الفترة. وإذا جاء تطور طقوس الدفن في مقابر تيبازة على هذا المنوال، فنحن نتسأل عن مدى تطابق هذه الطقوس مع طقوس الدفن المسجلة في مقابر أخرى من نفس الفترة بالمغرب القديم؟

2- طقوس الدفن من خلال بعض مقابر المغرب القديم بين القرنين 1 و 3 الميلاديين:

لإبراز مدى تطابق تطور طقوس الدفن بمدينة تيبازة ببعض مقابر المغرب القديم، حاولنا مقارنتها مع مناطق اخرى كإيول (شرشال) بموريطانيا القيصرية الوسطى، وسيتيفيس (سطيف) بموريطانيا القيصرية الشرقية، وبوبوت (الحمامات) بإفريقيا البروقنصلية.

تعتبر عادة الدفن العادي في مدينة شرشال من أقدم طقوس الدفن التي سجلت في مقبرة العهد البوني المتأخر بقمة تيزرين المؤرخة بين القرنين 3 و 1 ق.م، حيث تميزت بإستمرار عادات الدفن المحلية من خلال ما تم تسجيله في بعض القبور كالوضعية الجانبية المنطوية للموتى، وهي مشابهة جدا للمقبرة البونية الغربية لتيبازة[46]. لكن في فترة العهد الإمبراطوري الروماني الأول، بدأ التخلي عن عادة الدفن العادي لتستبدل بطقس الترميد الثانوي مثلما تبين من خلال عدد من المعالم الجنائزية المتمثلة في الكولومباريا والأضرحة، لينتشر بعد ذلك طقس الترميد الأولي خلال القرن 2 م[47]. في الوقت الذي تم فيه التخلي عن ممارسة طقس الدفن العادي وذلك طوال الفترة الممتدة بين القرن 1 م والنصف الثاني من

[46] Leveau (Ph.), Caesarea de Maurétanie : une ville romaine et ses campagnes. Collection de l'école française de Rome, 70, Rome, 1984, p. 13 et 206.
[47] Id., « Trois tombeaux monumentaux à Cherchel », B.A.A., 4, 1970, p. 100-148.

القرن 2م، فيما عدا إستمرارها لدى شريحة الأطفال، أعيد تبني هذا الطقس بصفة نهائية خلال نهاية القرن 2 م أو في بداية القرن 3 م[48].

فيما يخص مدينة سيتيفيس، فقد شهدت طقوس الدفن في المقبرة الشرقية ثلاث مراحل متتالية هي: قبور الدفن العادي القديمة، ثم قبور الترميد، وأخيرا قبور الدفن العادي المتأخرة[49]. ولقد كشفت معطيات هذه المقبرة أنه خلال أواخر القرن 1 م المتزامن مع فترة تأسيس مستعمرة سيتفيس وبداية القرن 2 م، كانت عادة الدفن العادي التي تستمد أصولها من التقاليد الجنائزية المحلية القديمة من أقدم طقوس الدفن التي تم تسجيلها في القبور السردابية ذات الطابع البوني المتميزة بمدخلها العمودي الشبيه بالبئر، وأن الإنتقال التدريجي إلى ممارسة عادة الترميد تكون قد بدأت من منتصف القرن 2 م، بحيث شاع استعمالها حتى نهاية القرن 2 م، مع تسجيل بعض الحالات النادرة في منتصف القرن 3 م أين طغت فيه مجددا ممارسة الدفن العادي[50]. كما سجل كذلك في هذه المقبرة تزامن كلا العادتين خلال القرن 2 م الذي قد يرجع بحسب اعتقاد الباحث فيفري إلى العادات الجهوية السائدة لدى المجتمعات قبل الإحتلال الروماني[51]، علما أنه تزامنت كذلك كلا الممارستين في روما ذاتها[52]. وفي شأن تزامن كلا الطقسين، لم يستبعد كلا من فيفري وغيري (Guéry R.) عامل المكانة الإجتماعية للأفراد، بحيث قد تنسب قبور الدفن العادي من دون أثاث جنائزي إلى طبقة الأفراد المحرومة، ويضيف الباحثان متسائلان فيما إذا لم تكن قبور الترميد في مقبرة سطيف متعلقة بالوافدين الجدد إلى المنطقة في حين تتعلق قبور الدفن بالسكان المحليين[53].

وإذا إنتقلنا إلى مدينة بوبوت بإفريقيا البرقنصلية التي ارتقت إلى رتبة مستعمرة بين عامي 185 و 192 م تحت فترة حكم الإمبراطور كومودوس (Commodus) (180م – 192م)، نجد من خلال

[48] Id., Caesarea de Maurétanie…, p. 206-207.
[49] Guéry (R.), « La nécropole orientale de Sitifis », in Nécropoles à incinération du Haut empire : table ronde de Lyon, 30 et 31 mai 1986. Rapport archéologique préliminaire de la région Rhone-Alpes, 4, direction des antiquités historiques, 1987, p. 69.
[50] Id., La nécropole orientale de Sitifis (Sétif, Algérie), fouilles de 1966-1967, CNRS, 1985, p. 311-312.
[51] Février (P.-A.), « Incinérations et inhumations… », p. 186.
[52] Toynbee (J. M. C.), Death and burial in the roman world, London, 1971, p. 39-42.
[53] Février (P.-A.) – Guéry (R.), les rites funéraires de la nécropole de Sétif, Anti. Afr., t. 15, 1980, p. 121 ; Février P.-A.), - Gaspary (A.), La nécropole orientale de Sétif, B.A.A., II, 1966-1967, p. 27.

الحفريات التي خصت مقبرة هذه المدينة منذ عام 1996، أنها كانت في إستعمال مستمر بين السنوات الأخيرة للقرن 1 م أو بداية القرن 2 م حتى القرنين 4 و 5 م. فمن خلال المعطيات التي أسفرت عنها حفريات هذه المقبرة، اتضح أنه سادت عادة الدفن العادي منذ نهاية القرن 1 م[54]، ولم تظهر ممارسة الترميد إلا في الثلث الأخير من القرن 2 م، لتستمر حتى بداية القرن 3 م بالتوازي مع بعض قبور الدفن العادي المزامنة لها[55]. وبخصوص ممارسة عادة الترميد في هذه المقبرة، سجل أن قبور الترميد الأولية هي أكثر أقديمة مقارنة مع قبور الترميد الثانوية التي لم تظهر بكثرة[56]. ومثلما كان الحال في معظم مقابر العهد الروماني، تم التخلي تدريجيا عن عادة الترميد خلال النصف الأول من القرن الثالث لتستبدل نهائيا بعادة الدفن العادي[57].

واستنادا إلى ما توفر من معطيات حول طقوس الدفن في بعض مقابر المغرب القديم، يبدو عامة أنه بعدما شاعت ممارسة الدفن لفترة طويلة من الزمن، بدأت تنتشر عادة الترميد بدءا من القرن 1 ق.م حتى نهاية القرن 2 م، مع عدم التخلي كليا خلال هذه الفترة عن عادة الدفن العادي التي إزداد إنتشارها مرة أخرى خلال القرن 3 م لتصبح هي العادة المتبينة من طرف الجميع في القرون الموالية.

المراجع البيبليوغرافية:

1- Alquier (J. et P.), « Tombes phéniciennes à Djidjeli », Rev. Archéol. 1930.
2- Astruc (M.), « Nouvelles fouilles à Djidjeli »,Rev. Afr., 80, 1937.
3- Baradez (J.), « Nouvelles fouilles à Tipasa dans une nécropole païenne ». *Libyca*, V, 1957.
4- Baradez (J.), « Quatorze années de recherches archéologiques à Tipasa (1948-1961) : méthode et bilan ». Revue africaine, CV,1961.

[54] Ben Abed (A.) – Griesheimer (M.), La nécropole romaine de Pupput. Ecole Francaise de Rome (E.F.R.), n° 323, Rome, 2004, p 7 ; Id « Fouilles de la nécropole romaine de Pupput (Tunisie) ». Comptes rendus de l'Académie des Inscriptions et des Belles-Lettres (C.R.A.I.), 2001, p. 570.
[55] Id., 2004, p. 185 et 187.
[56] Id., 2001, p. 567 et 569.
[57] Id., 2004, p. 187.

5- Baradez (J.), « Les nécropoles de Tipasa : tombes du cimetière occidental côtier ». Antiquités Africaines, 2, 1968 .
6- Ben Abed (A.) – Griesheimer (M.), « Fouilles de la nécropole romaine de Pupput (Tunisie) ». CRAI, 2001.
7- Ben Abed (A.) – Griesheimer (M.), La nécropole romaine de Pupput. E.F.R, n° 323, Rome 2004.
8- Bénichou-Safar (H.), Les tombes puniques de Carthage. Topographie, structures, inscriptions et rites funéraires. Paris, CNRS, 1982.
9- Bouchenaki (M.), Fouilles de la nécropole occidentale de Tipasa (Matarès) (1968-1972). Alger, SNED, 1975.
10- Bouchenaki (M.), Note sur un type de tombe punique dans la nécropole de Tipasa, Orieus Anticuus., 9, fasc. 2, Roma, 1970.
11- Camps (G.), « Incinération », Encyclopédie berbère, vol. 24, 2001, Aix-en-Provence, Edisud (http://encyclopedie berbere.revues.org/1567).
12- Camps (G.), Monuments et rites funéraires protohistoriques : aux origines de la Berbèrie, Paris, 1961.
13- Février (P.-A.) – Guery (R.), « Les rites funéraires de la nécropole orientale de Sétif ». Antiquités Africaines, 15, 1980.
14- Février (P.-A.), « Incinération et inhumation dans le Maghreb antique », in Incinérations et inhumations dans l'occident romain aux trois premiers siècles de notre ère, edit. M. Vidal, Paris, 1991.
15- Février P.-A.), - Gaspary (A.), La nécropole orientale de Sétif, B.A.A., II, 1966-1967.
16- Gsell (S.), chronique archéologique africaine, mélanges d'archéologie et d'histoire, vol. 20, n° 1, 1900,
17- Gsell (S.), L'histoire ancienne de l'Afrique du Nord, t. IV, 1920.
18- Gsell (S.), Les monuments antiques de l'Algérie, t. II, Service des Monuments Historiques de l'Algérie, Paris, 1901.
19- Guery (R.), « La nécropole orientale de Sitifis », in Nécropoles à incinération du Haut empire : table ronde de Lyon, 30 et 31 mai 1986. Rapport archéologique préliminaire de la région Rhone-Alpes, 4, direction des antiquités historiques, 1987.
20- Guery (R.)., La nécropole orientale de Sitifis (Sétif, Algerie), fouilles de 1966-1967, CNRS, 1985.
21- Lancel (S.), « Tipasitana I : fouilles dans la nécropole occidentale de Tipasa » (rapport sur des travaux réalisés au cours d'un stage archéologique en juillet 1964). Bulletin d'Archéologie Algérienne, I, 1962-1965.

22- Lancel (S.), « Tipasitana III : la nécropole préromaine occidentale de Tipasa ». Rapport préliminaire (campagnes de 1966 et 1967). Bulletin d'Archéologie Algérienne, III, 1968.

23- Lancel (S.), « Tipasitana IV : La nécropole romaine occidentale de la porte de Césarée ». Rapport préliminaire. Bulletin d'Archéologie Algérienne, IV, 1970.

24- Leveau (Ph.), Caesarea de Maurétanie : une ville romaine et ses campagnes. Collection de l'école française de Rome, 70, Rome, 1984.

25- Leveau (Ph.)., « Trois tombeaux monumentaux à Cherchell », B.A.A., 4, 1970.

26- Stone (D.- L.) - Stirling (L.- M.), «Funerary monuments and mortuary practices in the landscapes of North Africa», In mortuary landscapes of North Africa, Toronto, 2007.

27- Toynbee (J. M. C.), Death and burial in the roman world. London, 1971.

28- Vuillemot (G.), La nécropole punique du phare dans l'Ile Rachgoun (Oran), Libyca (Arch. – Epig.), III – 1, 1955.